

## « أحمد كمال العالم الأثرى الأول في مصر »

اختفت الآثار المصرية في زوايا الإهمال والنسيان ، وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع ، بعد أن قضى خلال القرن الرابع الميلادي على الديانة الوثنية في مصر ، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام . وانزوت مصر الفرعونية خمسة عشر قرناً ، وطوى الماضي المزدهر السحيق لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف ، وتعتمد على الخيال .

ظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء في البحث والكشف عن تلك الآثار ودراستها دراسة علمية سليمة ، وظهر علم الآثار المصرية ( إيجيبتولوجى ) وأخذ في النمو والإزدهار ، مما أتاح إعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، والكشف عن أصول الحضارة المصرية . وقد تم إزدهار ونمو هذا العلم الناشئ ، الذى لا يزيد عمره على قرن ونصف من الزمان في خطوات ثلاث متعاقبة .

جاءت الخطوة الأولى مع حملة نابليون على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، إذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان فيما درسوه آثار البلاد ومعالمها التاريخية ، وأخرجوا نتيجة أبحاثهم ودراساتهم فى كتاب علمى ضخيم هو كتاب « وصف مصر » ، الذى نشر فى باريس ما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣ . وبعد ما جاء فى هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر وما تضمنه من رسوم وخرائط وصور بداية الأعمال العلمية التى تهدف إلى دراسة مصر القديمة دراسة وافية منظمة .

ويشاء القدر أن تضيف الصدفة حسنة أخرى إلى أعمال الحملة الفرنسية إذ عثر أحد رجال الحملة سنة ١٧٩٩ على الأثر المعروف بحجر رشيد . وقد بدأت الخطوة الثانية فى نهضة علم الآثار المصرية حين أقبل الكثير من العلماء على هذا الحجر ، تجتذ بهم الفرصة المتاحة لمقارنة الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية المسجلة عليه ، والمتفقه معنى ونصها وإن اختلفت لغة وخطا . وانتهى الأمر بنجاح العالم الفرنسى « جان فرنسوا شمبليون » فى

الكشف عن أصول الكتابة واللغة المصرية القديمة . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء في قراءة وترجمة الوثائق المصرية ، وتقدمت الدراسات اللغوية ، مما أدى إلى انقشاع الغموض الذي كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم .

وقد مهد الكشف عن أصول اللغة المصرية إلى الخطوة الثالثة التي تجلت في اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية بالآثار المصرية ، وبدأت مرحلة الكشف عن الآثار وصيانتها ودراستها ، ففتحت المقابر ورمت المعابد وجمعت أوراق البردي واكتظت المتاحف بالآثار ، كما سلطت على مصر القديمة أشعة مناهج البحث العلمي الحديث . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرن التاسع عشر والعشرين بذلوا جهوداً جبارة في التنقيب المنظم عن الآثار وفي تسجيلها ووصفها وقراءة ما بها من نصوص ، ثم دراسة وتحليل ما كشفوه وسجلوه وترجموه ، مستهدفين في ذلك إستنباط معالم التاريخ المصري القديم ومقومات الحضارة المصرية القديمة .

وكان من بين علماء الجيل الأول العالم الألماني هنري بروكش ( باشا ) الذي ولد سنة ١٨٢٧ وتوفي سنة ١٨٩٤ ، والذي يعد من رواد اللغة الديموطيقية إذ ألف كتاباً عن أجروميته سنة ١٨٥٥ ، كما ألف قاموساً في اللغة الهيروغليفية في سبعة أجزاء ما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٢ ، وألف قاموساً جغرافياً لمصر القديمة ، وقام ببحوث ممتازة في تاريخ مصر وجغرافيتها القديمة . وقد أنشأ هذا العالم الألماني الكبير أول مدرسة للدراسات الأنزية بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ، ظل مديراً لها حتى أغلقت بعد بضع سنين .

كان بين طلبة تلك المدرسة العالم الأنزي الكبير المرحوم أحمد كمال ( باشا ) ، وهو أول مؤرخ عربي - منذ الفتح الإسلامي لمصر - كتب في تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة ، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين . ولذا رأيت من واجبنا أن نعلم شيئاً عن مثل هذا الرجل الذي كرس حياته للعلم ، وترك وراءه ذخيرة علمية ثمينة من بحوث ودراسات ، ظل عاكفاً عليها ، حفيماً بها ، يوليها أطياب أوقاته ، حتى صعدت روحه إلى

بارئها . إن معرفة ما قام به مثل هؤلاء الرجال ، واطلاع الجيل الحاضر عليه ،  
لواجب مقدس ، يمليه علينا صوت الحق والعدل ، ويحتمه الوفاء والعرفان  
الجميل .

\*\*\*

ولد أحمد كمال بالقاهرة في التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٧  
هجرية ( عام ١٨٤٩ الميلادي ) ، والتحق بمدرسة المبتديان الابتدائية بالعباسية ،  
ثم بالمدرسة التجهيزية التي كان مقرها إحدى الثكنات العسكرية بالعباسية ،  
( وهي تقابل المدارس الثانوية اليوم ) ، وتعد الطلبة للالتحاق بالمدارس العليا .  
ثم درس بمدرسة الألسن أو مدرسة « بروكش » للاكتار واللغة القديمة .

وقد عمل قبل أن يلتحق بمصلحة الآثار في جهات متعددة ، فكان معاوناً  
ومترجماً في نظارة المعارف ، ومعلماً للغة الألمانية بالمدارس الأميرية بالقاهرة  
والإسكندرية ، ومترجماً للغة الفرنسية بمصلحة ابورات البوستة وبديوان  
البحرية وبعموم الجمارك وبنظارة المالية . ولكن شغفه بالآثار جعله يترك هذه  
الوظائف رغم ما كان يجنيه من مكاسب مادية ، ويلتحق بوظيفة كاتب بمصلحة  
الآثار ، ثم لم يلبث أن شغل منصب مترجم بالأنتكخانة المصرية مع وظيفة معلم  
لغة قديمة بها . ولم تلبث وظيفة أمين مساعد بالمتحف المصري تمكن من الفوز  
بها ، وكان أول مصري يتقلد هذا المنصب . وقد ظل يعمل بمصلحة الآثار  
حتى اعتزل العمل سنة ١٩١٤ ، وهو في الخامسة والستين من عمره .

وقام أحمد كمال أيضاً بتدريس اللغة المصرية القديمة والحضارة المصرية  
في مدرسة المعلمين ( العليا ) وفي الجامعة المصرية الأهلية ، وكان عضواً بمجلس  
المعارف وبالمجمع العلمي المصري وبالمجمع اللغوي الذي أسسه جماعة من المهتمين  
باللغة العربية سنة ١٨٩٢ . وقد منح أثناء حياته الكثير من الرتب والنياشين :  
أنعم عليه برتبة الباكوية ثم الباشوية ، وتقلد نياشين كثيرة منها النيشان العثماني  
من الدرجة الرابعة ثم الثالثة والنيشان المجيدي من الدرجة الثالثة ، كما منح لقب  
أمين متحف شرف بعد إحالته على المعاش .

وتوفي أحمد كمال عن أربعة وسبعين عاماً في ٥ أغسطس سنة ١٩٢٣

بمنزله بأهرام الجيزة ، وهكذا طويت حياته بعد أن ترك صفحة خالدة في سجل العلم . لقد عاش أحمد كمال في زمن لم يعرف فيها المصريون أهمية الآثار وقيمتها ، ولم يعنوا العناية اللازمة بها ، في فترة احتكر فيها الأجانب العلم وتولوا المناصب الكبيرة في البلاد ، مما عرضه للكثير من المتاعب والمضايقات ، ومع ذلك فإنه لم يضعف أمامها ولم تعقه العقبات التي وضعت في طريقه ، بل صمد ونجح في صموده بفضل ما اكتسبه في حياته من تجارب وتدريب وخبرات ، وبفضل إيمانه بعظمة مصر القديمة ورفي حضارتها ، وبفضل إلمامه بالكثير من اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية بجانب العربية والتركية وبعض اللغات السامية ، وبفضل إطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث في اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة ، وأخيراً بفضل ما جبل عليه من إخلاص ودقة في العمل وجد وتفان في البحث وشغف وميل للدراسة والتحصيل .

والآن بعد أن ألمنا إلاماً عاماً بتاريخ حياة « أحمد كمال » لتحدث الآن عن أيديه البيضاء في ميدان الآثار ، وسأقسم هذا المجال الواسع إلى ثلاث نواح رئيسية :

أولاً : جهوده العلمية وما تركه لنا من كتب ودراسات وأبحاث .

ثانياً : جهوده العملية في المتاحف والحفائر والرحلات الاستكشافية والتفتيشية .

ثالثاً : جهوده في نشر الثقافة الأثرية في البلاد ، وجهاده في سبيل تخريج وتشجيع الأثريين من المصريين .

\* \* \*

ألف أحمد كمال عدداً كبيراً من الكتب باللغة العربية ، كما ترجم وألف باللغة الفرنسية كذلك . وسنتحدث الآن بإيجاز عن كتبه التي أخرجها باللغة العربية وهي حسب ترتيب صدورها :

١ — « كتاب العقد الثمين في محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين » وقد تناول في هذا الكتاب — الذي بلغت عدد صفحاته ٢٢٤ صفحة —

تاريخ مصر الفرعونية بايجاز مع الاهتمام بالنواحي الحضارية . تحدث في مقدمة الكتاب عن فائدة التاريخ وعن أصل المصريين وحدود مصر وأقسامها الإدارية وعن النيل واسمائه وفروعه ومصباته وعن تقسيم التاريخ الفرعوني إلى أسرات ملكية . ثم تناول في متن الكتاب أحداث وتاريخ أسرة بعد أسرة وملك بعد ملك ، مدوناً أسماء وألقاب كل فرعون ومدة حكمه . وتخلل هذا السرد التاريخي فصل عن العلوم في الدولة القديمة وآخر عن أعياد ومواسم المصريين القدماء ، كما ختم الكتاب بفصل عن الحروف الهيروغليفية وكيفية قراءتها .

٢ — « كتاب الفوائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية » وهو كتاب ضخيم يتناول قواعد وأصول اللغة الهيروغليفية وطريقة الكتابة المصرية القديمة ، سار في تبويبه وتنظيمه على أسس وقواعد اللغة العربية ، لا كما يفعل العلماء الآن حين يبحثون في قواعد اللغة المصرية القديمة فيقربون بينها وبين أجروميات اللغات الأخرى . وقد تناول في الباب الأول من هذا الكتاب الإسم ويتحدث عن نوع الإسم ( مذكر ومؤنث ) وأحوال الإسم ( مفرد ومثنى وجمع ) وأقسام الإسم ( جامد ومشتق وبسيط ومركب ) وتحدث عن إداة التعريف وأسماء الأعلام وأسماء الإشارة القريبة والبعيدة والضمائر المتصل منها والمنفصل والصفات والنسبة والتشبيه والتفضيل ومبالغة التفضيل ثم تناول الأعداد الأصلية والتركيبية والعمليات الحسابية والمقاييس والمكاييل والموازين وكذا ظرف الزمان والمكان وأسماء الإستفهام . وتحدث في الباب الثاني عن الفعل والفاعل والمفعول والمصدر وإسم الفاعل وإسم المفعول وعن تكوين الأزمنة وصيغها وعن الأفعال المساعدة والتعدية والبناء للمجهول . وتحدث في الباب الثالث عن الحروف فتكلم عن حروف الجر والاستثناء والعطف والتعليل والتشبيه والنفي والتمني والترجي والتثنية والنداء والإضافة . وافرد في نهاية الكتاب جانباً للتحدث عن خطوط اللغة المصرية من هيروغليفية وهيروغليفية مختصرة وهيراطيقية وديموطيقية وقبطية ، كما أعطى جدولاً بالإشارات الهيروغليفية بمختلف أنواعها وأقسامها ، وأرفق بهذا كله بعض التمارين للمطالعة والترجمة وكذا قاموساً صغيراً للكلمات الهيروغليفية الهامة ومعانيها والنطق القبطي لها .

٣ — « كتاب اللالى الدرية فى النباتات والأشجار القديمة المصرية » وهو عبارة عن معجم فى ٣١٦ صفحة للنباتات القديمة مرتباً حسب الحروف الأبجدية، وبه أسماء النباتات باللغة الهيروغليفية ومرادفاتها العربية والفرنسية، وأحياناً القبطية أو الديموطيقية أو العبرية أو اليونانية . ومما هو جدير بالذكر أن مركز تسجيل الآثار أدرك أهمية حصر وتحقيق النباتات والحيوانات فى مصر القديمة فكلف سنة ١٩٥٧ المرحوم الدكتور لويس كايمر بعمل قاموس واف عن نباتات مصر القديمة وحيواناتها . وقد تم عمل تخطيط شامل لذلك القاموس وأخذ الدكتور كايمر ومساعدته فى تدوين عدد من البطاقات تختص كل منها بنبات أو حيوان ولكن الدكتور كايمر — للأسف الشديد — مرض وتوفى قبل إتمام هذا العمل الكبير .

٤ — « كتاب بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » ويقع فى ٥٨٤ صفحة من الحجم الكبير ، كما تضمن أكثر من ٣٠٠ رسم توضيحي . وقد تناول أحمد كمال فى هذا الكتاب علم الميقات وعلم الفلك وعلوم الرياضة عند المصريين ، ثم تحدث عن ديانة قدماء المصريين وعقائدهم فى الآلهة والروح . وأفرد باباً خاصاً لعلم الطب المصرى القديم مهد له بكلمة عن أوراق البردى الطبية ثم تحدث فى كافة الموضوعات الطبية كعلاج الحروق ومداواة الجروح وعلاج الأسنان والكبد والأذن والأدوية المفيدة للجلد والمراهم المنزلة للآلام... الخ . كذلك أفرد فى هذا الكتاب باباً للمعادن والأحجار المصرية القديمة وآخر للنباتات وثالث للحيوانات . وكان أحمد كمال حريصاً فى جميع هذا الأبواب على كتابة أسماء هذه المواد باللغة المصرية القديمة مع مراعاة الترتيب الأبجدي .

٥ — « كتاب ترويح النفس فى مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس » وقد تحدث فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ٢١٠ صفحة عن تأسيس تلك المدينة ، وأسمائها القديمة، وتاريخها ، ومعابدها ، ومعبوداتها ، ونظريات الدينية ، ثم عن انحطاطها ، وحالتها الحاضرة ، وآثارها وأطلالها الحالية ، والحفائر التى أجريت بها . وتحدث فى هذا الكتاب عن علوم التقويم والفلك والتنجيم وهى علوم برع فيها كهنة هذة المدينة . وقد فند فى هذا الكتاب الرأى

الخاطيء القائل بأن العبرانيين هم الذين أسسوا هذه المدينة أثناء أسرهم بمصر، كما نصح الحكومة بعدم بيع أراضيها بعين شمس إلا إذا اشترطت أن يصبح كل ما يوجد بها من آثار حقاً خالصاً لها .

٦ — « كتاب الدرر النفيس في مدينة ممفيس » وهو كتاب صغير تحدث فيه عن تأسيس المدينة في عهد مينا ، وعن أسماءها القديمة ، وأقاليمها ، وأهمية موقعها الجغرافي ، وتاريخها . وقد أشار في سياق الحديث إلى أن الوضع الطبيعي لعاصمة البلاد هو غرب النيل حيث الوادى المتسع والخير الوفير ، وأنه لم يتخذ عاصمة لمصر في شرق الوادى إلا كل غريب عن البلاد .

٧ — « كتاب الحضارة القديمة في مصر والشرق » وهو عبارة عن مجموعة المحاضرات التي ألقاها في الجامعة المصرية الأهلية . تحدث في المقدمة عن معنى الحضارة والمذاهب المختلفة في أسباب ظهورها وكيفية إنتشارها ، وعن الجغرافيا الرياضية عند المصريين ، وعن النيل ، وأصل المصريين ومن أين وفدوا ، وعن أطوار الحضارة الأولى في العصور الحجرية والعصر العتيق . وتحدث في متن هذا الكتاب عن الآثار المصرية بأنواعها المختلفة ، وعن أسماء مصر وإشتقاقاتها ، وعن أقاليمها وعن الزراعة والتجارة والملاحة والمعارف والتمنون ونظام الحكم والكتابة والديانة والسحر والطب ، كما تناول بالدراسة تاريخ الدولتين القديمة والوسطى .

٨ — « كتاب الدر المكنوز والسر المفروز في الدلائل والخفايا والدفائن والكنوز » وقد أخرجه في جزئين الأول باللغة العربية والثانى ترجمة للجزء الأول باللغة الفرنسية . وقد تحدث في هذا الكتاب عن المساجد والكنائس والآبار والكهوف القديمة في جهات ومدن مصر المختلفة .

هذه هي كتب أحمد كمال في اللغة العربية وهي التي أرجو أن يعاد طبعمها حتى يسهل الإطلاع عليها وقد قام بجانب هذا بترجمة دليلي متحفى القاهرة والإسكندرية من اللغة الفرنسية إلى العربية ، كما نشرت له مقالات في بعض المجلات العربية كالمقتطف والمنار .

أما مؤلفاته الفرنسية فأهمها كتابان يدخلان في نطاق الكتابالوج ( أو الفهرست ) العام لمتحف القاهرة ، ذلك المجهود العلمى الضخم الذى اشترك فيه

عشرات من العلماء ، وكان أعظم شرف لعالم الآثار وقتئذ أن يشترك في وضع هذا الكتالوج ، الذي كان ولا يزال من أهم مراجع الآثار المصرية .

تناول الكتاب الأول لوحات القبور Stèles hiéroglyphiques d'Epoque Ptolémaïque et Romaine التي ترجع إلى العصر اليوناني الروماني ، فقام بوصف وتسجيل نصوص ٢٠٨ من هذه اللوحات مع تدوين ملاحظاته عنها في الجزء الأول ، وافرد الجزء الثاني لصورها .

ودرس في الكتاب الثاني موائد القرابين Tables d' Offrandes من الدولة الوسطى حتى العهد الروماني ، فتناول في الجزء الأول ٢٥٦ مائدة قرابين بالوصف والنسخ وتقرير حالتها ومستواها الفنى ، وافرد الجزء الثاني لصورها .

كذلك قام بكتابة ما يقرب من ستين مقالا باللغة الفرنسية ، خص منها مجلة مصاحبة الآثار أربعون مقالا ، ووزع الجزء الثاني على المجلة الفرنسية للآثار ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ومجلة المجمع العلمى .

وقد تناولت بعض هذه المقالات موضوعات دينية، ونحدرت في مقال منها مثلا عن الأقسام المقدسة في أما كن مختلفة من العالم ، وتناول في مقال آخر « نظريات قدماء المصريين في طريقة خلق العالم » بالبحث والدراسة . وخصص بعض المقالات لوصف بعض الآثار التي اكتشفها أو عثر عليها ، فحرص على تسجيل نصوصها وتدوين ملاحظاته العلمية عنها . وتناولت مقالات أخرى الجغرافية التاريخية لمصر وطبوغرافيتها القديمة : فكذب مقالا في خمس وأربعين صفحة عن أصل كلمة مصر والأسماء الجغرافية التي تعبر عن ذلك وسكانها الأصليين ونحدرت في بعض مقالاته عن مدن مصرية من حيث موقعها وأصل إسمها وتاريخها وآثارها وجباناتها والحفائر التي أجريت بها ، ووضحاً ذلك بالرسوم والخرائط، منها مقال عن مدينة سمبود القديمة ، وآخر عن الحيبة ، وثالث عن بوتو ( تل الفراعين ) ، ورابع عن هليو پوليس ( عين شمس ) ، وخامس عن منطقة البرلس ، وسادس عن بعض الأماكن الأثرية في الوجه البحرى ... الخ .

وتناولت بعض مقالاته الحفائر التي أجراها أو أتمرف عليها أو تقارير عن

الرحلات التفتيشية والاستكشافية التي قام بها . أما أهم مقالاته فهي التي تناولت موضوعات لغوية : تحدث في مقال من أربعين صفحة عن أسماء ملوك مصر التي وردت في المخطوطات العربية مع التعليق عليها والبحث عن أصلها ، وتحدث في مقال آخر من خمس وثلاثين صفحة عن أسماء الملابس عند المصريين القدماء مع مقارنتها بالمرادفات العربية ، وأفرد مقالا ثالثاً لأصنام العرب محاولاً الربط بين أسمائها وبعض ألفاظ اللغة المصرية القديمة أو إيجاد صلة بينها وبين المعبودات المصرية ، وفي مقال رابع تناول بالدراسة أصل كلمة مصر .

والآن لتتحدث عن أهم وأثمن ما كتبه وهو « المعجم المصري القديم » ، الذي لا يزال مخطوطاً في ٢٢ جزء لم يطبع للان ، والذي يجمع مفردات اللغة المصرية وما يقابلها بالعربية والفرنسية والقبطية والعبرية .

هذا المعجم يرتبط بناحية اهتم بها أحمد كمال وهي مدى صلة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص . فقد لاحظ العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر في قواعد اللغة المصرية القديمة الشيء الكثير من مظاهر وخصائص اللغات السامية : من ذلك اعتماد اللغة المصرية على الحروف الساكنة وخلوها من المتحركة ، وتشابه صيغ الفعل وأزمانه مع الفعل السامي ، واشتمالها للمثنى بجانب المفرد والجمع ، ولظروف الزمان والمكان ، ولياء النسب وتاء التأنيث والضمائر المتصلة ، ثم استخدام اللغة المصرية الجمل الفعلية بجانب الإسمية ، كما لوحظ أن الكثير من ألفاظ اللغة المصرية قريب في تركيبه ونطقه من مرادفات السامية .

وهذا الميدان الواسع المتشعب لا يمكن أن يطرقه إلا عالم ملم باللغة المصرية واللغات السامية وخاصة العربية إماماً كبيراً ، وقد طرق أحمد كمال هذا الميدان ، وتناول العلاقة بين اللغة المصرية والعربية في محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين، الناصرية سنة ١٩١٤ جاء فيها :

«اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد ... » .

ثم جاء في هذه المحاضرة :

« ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال أمكنني الخوض في مقارنتهما بالبراهين القاطعة التي تظهر لنا حقائق المعاني وتبين لنا فخوى النصوص التي وضعت . لا أفتخر بذلك ولا أبريء نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع ولكني سلكت طريقاً أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال في بعض كلماتها ، اقتداءً بالمصريين أنفسهم ، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين ... » .

وعلى هذا الأساس بدأ أحمد كمال في كتابة معجمه الذي استغرقت كتابته ، ما يقرب من عشرين عاماً ، وأخرجه في ٢٢ جزءاً ، وينضمّن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفيه . وكانت طريقته في هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفيه - وقد يسجل أحياناً النصوص التي احتوتها - ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية . ولنضرب مثلاً بحرف الـ « س » فقد تضمن المجلد الخاص بهذا الحرف ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات .

وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريباً قبل أن يظهر قاموس إرمان «وجرايو» الصغير سنة ١٩٢١ ، كما أن المعجم المصري الكبير المعروف بقاموس برلين ، الذي أخرجه المجمع العلمي البروسي جامعاً بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية ، لم يظهر إلا في الفترة بين ١٩٢٦ ، ١٩٣١ أي بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال .

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة أشهر إلى وزارة المعارف طالباً طبع المعجم على نفقتها ، فأحيل جزء منه وهو المتضمن حرف « القاف » إلى مدير المطبوعات وكان إنجائزياً في ذلك للوقت ، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار ، العالم الإنجليزي « فرث » ليبدى رأيه فيه . وقد أشرك « فرث » معي في هذا الموضوع ، العالم الفرنسي « لاكو » مدير مصلحة الآبار وقتذاك ، وعالم الآثار الأمريكي « ريزنر » الذي كان يدير حفائر جامعة « هارفرد » بمنطقة أهرام الجيزة ، وقد حبذ الأمريكي طبع المعجم ورفض الفرنسي ذلك ، وامتنع

الإنجليزيان عن إبداء الرأي ، وهكذا قضى على هذا المعجم بأن يطوى في زوايا النسيان .

وإني لأنتهز هذه الفرصة فاطالب باعادة النظر في أمر نشر هذا المعجم بعد تحقيق بعض ما أجراه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية وسائر اللغات السامية . وهذا أمر طبيعي فالمعجم في حاجة دائماً إلى التنقيح والتعديل والإضافة . وأتوجه برجاء خاص إلى السيد رئيس الجمعية الدكتور أحمد بدوي أن يعنى بهذا الموضوع ، فهو يهتم إهتماماً كبيراً بالمعجم والقواميس ، وقد سمع معظمنا عن المعجم الذي أخرجه سيادته منذ بضع سنوات بعنوان « المعجم الصغير في مفردات اللغة المصرية القديمة » ، كما كان دائماً شديد الإيمان بالصلة القوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية وخاصة العربية ، وقد انعكس هذا الإيمان في محاضراته في معهد الآثار المصرية في اللغة المهيروغليفية التي كانت تتضمن نماذج عديدة من الكلمات المتقاربة في التركيب والنطق في اللغتين المصرية القديمة والعربية ، كما ألقى سيادته في ٤ فبراير سنة ١٩٦١ بحثاً قيمياً في مجمع اللغة العربية بعنوان « اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية » . إني أطمع في أن يولى هذا الموضوع شيئاً من اهتمامه .

\* \* \*

هذا مجمل لنشاط المرحوم أحمد كمال العلمي ، وموجز لما قام به في ميادين البحث والدراسة والتأليف ، وقد شمل نشاطه كافة نواحي علم الآثار من لغة وتاريخ وحضارة وفن ودين ، والآن لننظر قليلاً فيما قام به من مجاهدات عملية في ميدان الآثار .

قام أحمد كمال بجولات استكشافية وثنائية في كافة المناطق الأثرية بالبلاد ، كتب عنها تقارير هامة مفيدة .

وأسهم أحمد كمال في التنقيبات والحفائر التي أجريت في عشرات من المواقع الأثرية ، وخاصة في مصر الوسطى ، أذكر منها على سبيل المثال لالحصر حفائر البرشه ، وعرب البرج ، وأطفيح ، والشيخ سعيد ، ومير ، ودير ( م : — المجلة التاريخية )

الجبراوى ، ودرنكة ، وبالقرب من ديروط ، وديمة في شمال بركة قارون .  
وقد كتب عدداً من التقارير الممتازة عن هذه الحفائر في مجلة مصلحة الآثار ،  
من أمتها تقاريره عن حفائر قرب ديروط التي شغلت ما يقرب من ١٤٠ صفحة  
من اعداد تلك المجلة .

كذلك قام أحمد كمال بالدور الرئيسى فى العثور على موميات الفراعنة  
التي كانت مكدسة بمخبأ الدير البحرى بغرب طيبة .

وبذل أحمد كمال جهداً كبيراً فى سبيل نقل آثار المتحف المصرى ،  
وفى تنظيمها وترتيبها عندما نقلت من متحف بولاق إلى متحف الجزيرة سنة ١٨٩٠م  
ثم عندما نقلت من متحف الجزيرة إلى المتحف الحالى سنة ١٩٠٠ .

كذلك جاهد أحمد كمال لإنشاء المتاحف الإقليمية فى عواصم الأقاليم  
ونجح فى إنشاء متاحف أسيوط والمنيا وطنطا . وانى أنقل هنا جانباً من  
مقال كتبه فى هذا الشأن فى جريدة الأهرام ، موجهاً الحديث فيه إلى مديرى  
المديريات :

« فى أيها المديرون ، أهل الفصل والمعارف ، القائمون باصلاح شئون البلاد ،  
المعهد إليكم أمرها وتقديمها ، أسوق إليكم حديثى هذا لبذل كل ما تستطيعون  
من الوسائل لإنشاء المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفردية . هذا ولا يخفى  
أن مجالس المديريات والبلديات يمكنها القيام بصرف ما تحتاج إليه هذه المتاحف  
ودور الكتب والمكتبات الفردية لأنه أمر متيسر لكل مدير غير على بلاده .  
فالمتاحف لا تكلفهم شيئاً ، فان المتحف المصرى العام عليه أن يورد الآثار التى  
لا تقيده والتي يبيعها الآن للجانب فى قاعة المبيعات بأبخس الأثمان وأن يعطهم  
القواعد والنصبات والدوايب وأنواع الأثاث المودعة فى المخازن بلا فائدة .  
وليكن لكل مدير الحق فى حفظ كل شىء يحده السباخة فى الخرائب والاطلال  
من الآثار التى تبدو بدون ثمرة ولا فائدة ، وبذلك تصبح كل مديرية حافظة  
لآثار سكانها القدماء تنافس أختها فى التقاط ما يؤخذ منها أثناء السباخ »

وهذا المقال يبين لنا فى نفس الوقت ما بدأه هذا العالم من سخط على خروج  
آثار مصر القيمة إلى الخارج بلا رباط أو ضابط .

. ناحية ثالثة بذل فيها أحمد كمال جهداً كبيراً بجانب الناحيتين العلمية والعملية هي سعيه في نشر الثقافة الأثرية، وتبصير المصريين بعظمة بلادهم السابقة، ومحاولة خلق جيل ناشئ من الاثريين المصريين يعملون في حقل الآثار الذي كان قاصراً في ذلك الوقت على الأجانب .

ولقد كانت مهمته شاقة صعبة إذ كان الوعي الأثري شبه معدوم والعناية بالآثار ودراستها أموراً غير مألوفة، وسأقدم على سبيل المثال جانباً مما كتبه المرحوم محمد المويلحي في كتابه « حديث عيسى بن هشام » مندداً بالآثار الفرعونية، متندراً بمعرفة أحمد كمال باللغة الهيروغليفيه إذ قال :

« ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً، ولا أفادوك عنها شيئاً، ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين . ولن تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة الهيروغلييف أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون، مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية، والله أعلم بمقدار علمه بها .

ولو تمنيت الاماني لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها الغالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . ويا ليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم، فانها تكلف الامة المصرية نفقات على البحث عنها في خفايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف، وناهيك بنفقات المتحف التي أتفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجزيرة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل فانها تعد بالملايين » .

ويرجع إلى أحمد كمال فضل السعي لدى ناظر المعارف أحمد حشمت باشا لإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية . وقد كلل سعيه بالنجاح فأنشئت أول فرقة، التحق بها المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا والمرحوم الدكتور سليم حسن والمرحوم رياض جندى ملطى والمرحوم أحمد البدرى والسادة رمسيس شافعى و « محمود حمزة » كما التحق بالفرقة الثانية المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وكان أهم أغراض هذه الفرقة دراسة الآثار والتاريخ المصرى القديم وذلك لإعداد موظفين.

ولما أكملت الفرقة الاولى دراستها سنة ١٩١٢ ونالت دبلوم مدرسة المعلمين الخديوية حاول أحمد كمال إلحاق بعض أفرادها بالمتحف المصرى ولكنه لم يوفق فى هذا السبيل للعراقيل التى أقامها الأُجانب فى سبيل ذلك، فاشتغل خريجوا الفرقة بالتدريس حتى أوفدت منهم وزارة الأشغال ( التى كانت تتبعها . مصلحة الآثار حينئذ ) سنة ١٩٣٢ سليم حسن إلى باريس، ومحمود، وحمزه إلى لفربول ثم باريس كما أرسلت سامى جبره إلى لفربول وعباس بيومي إلى باريس ليستكمل الجميع دراستهم فى الآثار .

ولما اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ أثار اكتشافها إهتمام مصر والعالم بأجمعه ، ففكرت وزارة المعارف فى إعادة إفتتاح تلك الفرقة بمدرسة المعلمين، وتم ذلك فى يناير ١٩٢٤ ، والتحق بها بعض الطلبة الحاصلين على البكالوريا . وحين صدر المرسوم الملكى بإنشاء الجامعة المصرية ١٩٢٥ تقرر أن يكون من أقسام كلية الآداب قسم للآثار ، وألحقت تلك الفرقة بكلية الآداب فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

\* \* \*

هذا هو تاريخ أحمد كمال الذى ارتقى سلم المجد على درجات العلم والكنفاح ، والذى أوقف حياته على خدمة الآثار ، وظل رغم شيخوخته وحق أيامه الاخيرة مثابراً على الكتابة والبحث والتأليف ، والذى كشف عن عظمة وبهاء الحضارة المصرية ونظر فى أحوالها الإقتصادية والفكرية والفنية والإجتماعية ، كما نظر فى حياتها السياسية ، والذى أدرك أن طبيعة عمل الأثرين المصريين ليس مجرد التحفظ على بقية من آثار حدت على مر القرون والدهور أو مجرد تفاخر على بقية العالم بما كانت عليه بلادنا حين شقت حضارتها على بقية البلدان ، وإنما هو عمل ودراسة وبحث وتحليل وصقل وتقويم ، ينعكس على الشعب فى شكل ثقافة وعزة تدفعه إلى الأمام .

ومع ذلك فحين توفى أحمد كمال لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة رغم ما جرت عاياه من عادة نعى كل عالم أجنبي فى صفحات طوال . ولم تنعه من عشرات المجلات العلمية سوى مجلة المجمع العلمى ومجلة الآثار المصرية البريطانية وكان ذلك فى بضعة سطور .

وكل زائر للمتحف المصرى يرى أسماء ثمانية عشر طالما أثرياً مسجلة على واجهة المتحف ، ليس من بينها اسم أحمد كمال كما يقابل الزائر فى حديقة المتحف المصرى تمثال وتابوت مريت . وفى داخل المتحف سبعة عشر تمثالا لكبار الأثريين الأجانب ، وليس من بينهم بالطبع تمثال « أحمد كمال » . بل لقد طالب بعض المختصين بوزارة المعارف بعمل تمثال له ، وفعلا أقامت الوزارة له تمثالا جصيا ، ولكنه أودع متحف التعليم . وإنى لأرجو تدارك ذلك حين إنشاء متحف الآثار الجديد .

\* \* \*

أرجو أن يرسم الجيل الناشئ من الأثريين سيرة هذا الرجل ، ويحذوا حذوه ، ويعوا خطاه فى خدمة العلم والثقافة والوطن ، وأن يتموا رسالته التى جاهد فى سبيلها حتى النفس الاخير .

محمد جمال الدين مختار